صورة المرأة العاملة في أدب نجيب الكيلاني الروائي

بقلم: محمد أبو المعاطي
ماليزيا

لقد عرض الكيلاني نماذج متعددة للمرأة العاملة في رواياته، فالمرأة عنده عملت في مجال الصحافة فكانت خير معبر عن قضايا الأمة، كصفاء في (رأس الشيطان)، وفاطمة في (عذراء جاكرتا)، ونبيلة في (رحلة إلى الله)، وعملت المرأة في التجارة حتى صارت سيدة أعمال تملك الملايين، كأم صابرين في روايتي (اعترافات عبد المتجلي)، و(امرأة عبد المتجلي)، وكانت المرأة مالكة للأراضي الزراعية، وعملت بالزراعة حتى صارت ملكة متوجة في مجال عملها كبراعم في (ملكة العنب)، وعملت المرأة طبيبة كالدكتورة فضيلة في (رجال وذئاب)، والدكتورة رباب في (أهل الحميدية)، وممرضة كمنال في (الربيع العاصف)، وجاماكا في (عمالقة الشمال)، والمرأة التي تعمل عند الكيلاني كانت تعمل لتعول أسرة كاملة، فصفاء في (رأس الشيطان) كانت تعمل لتنفق على أسرتها، وبراعم كانت تعمل لتعول أمها وأختيها، وامرأة عبد المتجلي كانت تساعد زوجها الفقير، وفاطمة اضطرت إلى العمل بعد اختفاء والدها، ومنال كانت تنفق على أسرتها بعد وفاة والدها، وبدرية في (ليالي السهاد) عملت بعد اعتقال زوجها.

وهذه صفاء بطلة رواية رأس الشيطان اختار لها الكيلاني مهنة الصحافة، وأعطاها دورا موازيا لدور بطل الرواية، مع أن الصحفيات من النساء كن قلة قبل ثورة ١٩١٩م، وهي مهنة تتطلب درجة عالية من الذكاء والثقافة وقوة الشخصية والحس العام، وقد توافرت كل هذه الصفات في صفاء «فهي فتاة طيبة نبيلة مكافحة سبقت عصرها، وحملت عبء النضال كإنسانة شريفة، وسجلت بكل فخر أن المرأة جديرة بأن تفعل الكثير»[١].

وصفاء كانت تعمل لتنفق على أسرتها، وكانت هي العائل الوحيد للأسرة المكونة من الأب المحال على المعاش، والذي لا يغادر البيت إلا نادرا، وأمها، وعمتها التي تقيم معهم من زمن بعيد بعد أن مات زوجها دون أن ينجب لها، وأخيها الصغير، عندما فكرت صفاء في الاستقالة مع الدكتور ضياء بسبب انحراف خط الصحيفة، واتجاهها إلى تمجيد عثمان باشا وزوجته، وبسبب المقالب التي دبرها لهمابركات زميلهما في الصحيفة وسكرتير عثمان باشا، قال الدكتور ضياء لصفاء:

« - إنها مغامرة

- لكننا مرغمون..

- والأسرة التي تعولينها؟

وصحت صفاء من أحلامها الثائرة على الحقيقة التعسة، في أول الشهر يجب أن تدفع إيجار الشقة، وحساب البقال والجزار والكواء والنور، وتشتري لأبيها القهوة والدخان وبعض العقاقير»[٢].

وبدرية في ليالي السهاد بعد اعتقال زوجها أخذت تنتقل من شارع إلى شارع.. ومن مكتب إلى مكتب، حتى كلت قدماها، وأخيرا عثرت على وظيفة بسيطة، في مكتب للآلة الكاتبة، ولم يتجاوز أجرها الخمسة عشر جنيها تدفع منها سبعة إيجارا للشقة التي تعيش بها في شبرا، والباقي للطعام والشراب والكهرباء والكساء والمواصلات في الترام[٣].

وفي روايتي اعترافات عبد المتجلي وامرأة عبد المتجلي يقدم لنا الكيلاني نموذجا للمرأة بنت المدينة الجسور، أم صابرين زوجة عبدالمتجلي، التي تقوم بالإعداد لمشروع تجاري، وأقنعت زوجها بطريقة عملية، وسوقت تجارتها في البداية منزليا، وهذا الحوار يكشف حاجة الأسرة إلى عمل المرأة، يقول عبد المتجلي:

« إنك تضعينني أمام الأمر الواقع.

قالت باسمة : إن مرتبك لا يكفي لإطعام البقرة والحمار.

د. نجيب الكيلاني

- أدرك أنها على حق، فقال :

- ثم ماذا بعد ذلك؟

- بقي أن نعلن عن افتتاح المحل..

- ضحك وقال : ونطلق عليه (سوبر ماركت أم صابرين!!)

- ولِمَ لا .. أنت موظف ولا يحق لك التجارة ؟...»[٤].

وبحكم خبرتها أو حسها التجاري تنمو تجارتها وتتوسع، وتتعامل مع الناس بطريقة حسنة، وتكسبهم إلى جانبها مع التزامها بصورة المرأة المسلمة المحافظة، فقد منحتهم القروض والمساعدات، وجاملتهم في المناسبات، وشاركتهم في البهائم، وماكينات الري والزراعة، وساهمت في ترميم المدارس والمساجد، ووفرت حافلة للنقل من القرية إلى المدينة والقرى المجاورة، وبنت مقابر للصدقة، ورصدت جوائز للمتفوقين في المدارس وحفظ القرآن الكريم، وقدمت معونات لأصحاب الكتاتيب.

ويقدم لنا الكيلاني في رواية ملكة العنب أنموذجا للمرأة في أقصى حالات الإيجابية البشرية، والنزوع إلى الخير، والعمل من أجل الصالح العام. لقد جعل ملكة العنب امرأة عاملة تؤدي عملها بطريقة مثالية فهي :

« لم تتلق من التعليم إلا الإعدادية... حين مات أبوها خرجت إلى الحقل تزرع وتحصد، كانت أمها معتلة الصحة، وكانت لها أختان صغيرتان. وكانت أول من أدخل زراعة العنب في القرية على نطاق واسع، فقد نقلت ذلك عن أخوالها في قرية مجاورة اسمها شنراق حتى أصبحت لديها خبرة طويلة في ذلك... وبدأت بزراعة أفدنتها الأربعة

التي تركها أبوها، وبعد أن نجحت أخذت في استئجار المزيد من الأفدنة بأثمان مغرية، حتى أصبح ما تزرعه يزيد على ثلاثين فدانا، وكان من الطبيعي أن يسمى نقابة «زراع العنب» فهي التي تختار *المبيدات الحشرية* والأسمدة المناسبة، وهي التي تحدد مواعيد الحصاد، وتتفاهم مع كبار التجار للحصول على أعلى سعر، ومن هنا أطلقوا عليها «ملكة العنب»، كل رجال القرية وأطفالها ونسائها يعرفون براعم.. يحبونها، ولم يعرف عنها قط ما يشين سلوكها»[٥].

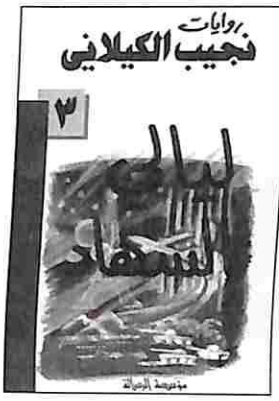

إن عمل المرأة في الزراعة في ريف مصر أمر طبيعي ومنتشر بشكل واسع، لكنها تقوم دائما بمساعدة أهلها أو زوجها، ولا تملك الأرض التي تعمل فيها، بل يملكها زوجها أو الرجال من أهلها. لكنها في ملكة العنب هي صاحبة الأرض ورثتها مع أمها وأختيها عن أبيها، والكيلاني يجعل المرأة في ملكة العنب ولية أمر نفسها وأمر أسرتها الصغيرة المكونة من النساء، والكيلاني أثبت في ملكة العنب أن المرأة تملك قدرات عملية وعقلية وخلقية تؤهلها للقيام بمبادرات جريئة في عالم الاقتصاد والإنتاج، وكذلك في السعي لحل المشكلات التي تطرأ على مجتمعها.

ولم تسلم المرأة العاملة من مخاطر العمل واختلاطها بالمجتمع، فصفاء في رأس الشيطان لم تسلم من المخاطر خلال عملها، فرئيس التحرير الذي لا يقل عن والدها في السن، طلب منها الزواج يوما، وعندما سمعته « انفجرت باكية، وكتمت شهقاتها ودموعها التي أفلتت منها»[٦]. ولكن تصرفات رئيس التحرير مع سكرتيرته صفاء كانت غريبة لحد ما، فكان أحيانا يجلسها قبالته دون أن يطلب منها عمل شيء بعينه، ويتكلم في أشياء لا رباط بينها ولا صلة لها بالعمل المنوط بها، وبعد أن فشلت محاولاته للزواج منها حاول اغتصابها، ولكن إرادة الله حالت دون هذا في أمر يشبه كرامات الأولياء الصالحين عندما اقترب منها وهم باغتصابها «تمتمت يا رب » وهمت بأن تدفعه لكنها أحست بقبضته تتراخى، ووجهه يشحب، وجفونه ترتخي.. ثم.. ارتمى على أرض الغرفة عاجزا مقهورا لا يستطيع أن ينطق، وصدره يعلو ويهبط »[٧]. وكذلك لم تسلم من المحاولات العابثة التي لاقتها أثناء بحثها عن عمل جديد [٨].

وبدرية في ليالي السهاد قد أوعز أحد رجال المباحث إليها بأن تطلب الطلاق من زوجها المعتقل، وأفهمها أنه ربما لا يخرج أبدا، وأنه سيظل مهددا طول حياته، ووعدها بوظيفة محترمة إذا هي فعلت ذلك، بل حاول هذا النذل مغازلتها لعله يستطيع أن يصل إلى شيء فيهدم كبرياءها ويلوث شرفها، لكنها وهي عزلاء، كانت أقوى من المكر والدهاء والإغراء [٩]. فحفظت غيبة زوجها، وكانت رمزا للصبر والتضحية.

وأم صابرين في رواية امرأة عبد المتجلي كانت ألسنة الناس تذكرها دائما. فطبيعة نجاح أم صابرين تضاربت حوله الآراء : أهو من طريق مشروع، أم غير مشروع؟ يقول شيخ الجامع لعبد المتجلي : « زوجتك أقامت إمبراطورية للشر... إن السوق السوداء طريق إلى جهنم، والاحتكار ملعون في الكتاب والسنة، والعمل على رفع الأسعار إجحاف بحق الفقراء وشعبنا المسكين»[١٠].

ولم تسلم أم صابرين من المخاطر، لأنها لم تخضع لإرادة زعمائها، وكانت نهايتها المأساوية الدامية، حيث قتلت في عقر دارها، وتركت أطفالها وزوجها يحصدون المرارة والأسى، فهل صارت ضحية سهلة لأنها صارت وحيدة بتخلي زوجها عنها، فلم يقف معها، بل ظل متشككا فيها حائرا تجاهها.

أما براعم في ملكة العنب فقد أجاب الدكتور الكيلاني من خلالها على التساؤلات والادعاءات والاتهامات التي كانت تدور حول دور المرأة في المجتمع، وحول موقف الإسلام

من المرأة عموما، فالمرأة في ملكة العنب نجحت في أعمال الزراعة والاقتصاد والسياسة، وترؤس الأسرة، وفعل الخير من خلال الأعمال التطوعية، دون أن تتسبب بالأذى لنفسها أو لمن حولها.

وقد قدم الكيلاني استراتيجيته لإقامة المجتمع الإسلامي من خلال المرأة، وفي أسلوب خطابي صريح يقدم الكيلاني احترامه للمرأة، وتأكيده على دورها في بناء المجتمع، فهذا الشيخ محمد حسب الله وقف في المسجد بعد صلاة الجمعة وقال : « أحدثكم اليوم عن ابنة الربايعة الشريفة العفيفة... الخيرة.. النيرة : الآنسة براعم»[11]. ثم تحدث عن حبها للناس وتفانيها في خدمتهم إرضاء لله... ثم كشف لأول مرة الدور البطولي الذي قامت به براعم تفصيليا لدى المحافظ، وفي أمن الدولة. والقيام بكثير من الجهود والتضحيات حتى يفرج عن أبناء الربايعة، ثم مشروع زكاة العنب الذي كونت له لجنة من أفاضل الناس، فعم الخير والرخاء البلدة بأسرها، بل إنها رصدت ميزانية لرعاية أطفال السلاموني وزوجه حتى لا يضيعوا، أو يودعوا في الملاجئ، وساعدت الطلبة الفقراء بجعل مالي شهري حتى يستطيعوا مواصلة تعليمهم، ثم يقول : « هذا - أيها الإنسان - هو الإسلام الحقيقي، فإذا أردنا أن نحقق مبادئ الإسلام في الدولة، فلنبدأ بأنفسنا وأسرنا، ثم إلى قرانا الصغيرة، ولا ننتظر انقلابا مفاجئا يطبق شريعة الله [12].

ولم تكن براعم هي المرأة المثالية الوحيدة في روايات الكيلاني ولكنها المرأة العاملة في أنضج صورها، ولم يحرمنا الكيلاني من النماذج التي تعد مثالية، وتمثل المرأة في أروع صورها، سواء كانت هذه المرأة عاملة، أو ربة بيت، أو فلاحة أمية، أو امرأة متعلمة، أو طالبة جامعية، كما نجد المرأة ممثلة في الأم، والزوجة، والمرأة الملتزمة المسلمة الصالحة التي تمثل أرفع صور الالتزام، ففي أدبه الروائي نماذج مثالية للمرأة في الريف كقطيفة في رواية أبو الفتوح الشرقاوي التي وقفت بجوار زوجها في محنته وضحت بالقراريط التي ورثتها من أجل مساعدة زوجها، والمرأة النموذجية في المدينة كما رأينا بدرية في ليالي السهاد، والدكتورة فضيلة في رجال وذئاب، والمرأة المثالية في المجتمع التي شغلت نفسها بقضايا الأمة كما رأينا صفاء في رأس الشيطان، ونبيلة عبد السلام في رحلة إلى الله، وسكينة في حمامة سلام، وصابرين في النداء الخالد، وفاطمة في عذراء جاكرتا الفتاة الشابة التي واجهت الشيوعية في بلدها من خلال الكلمة بالعمل في الصحافة، ومن خلال الجهاد في ساحات المعارك، وجاماكا في عمالقة الشمال التي عانت من التنصير في بلدها نيجيريا وواجهته من خلال عملها في التمريض وإسعافها للجرحى في ساحات الجهاد، وبهذا يكون الكيلاني قد نجح في رسم صورة متكاملة للمرأة المثالية في أدبه الروائي، توافق صورتها في الإسلام. ■

الهوامش:

(١) نجيب الكيلاني، رأس الشيطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م، ص ٢٣٠.
(٢) المرجع السابق، ص ١٥٠.
(٣) نجيب الكيلاني، ليالي السهاد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ١٩٩٣ م، ص٦، ٧.
(٤) نجيب الكيلاني، امرأة عبدالمتجلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م، ص٧.
(٥) نجيب الكيلاني، ملكة العنب، دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٨م، ص١١.
(٦) نجيب الكيلاني، رأس الشيطان، ص٦٢.
(٧) المرجع السابق، ص١١٢.
(٨) المرجع السابق، ص ٢٥١.
(٩) نجيب الكيلاني، ليالي السهاد، ص ١٠، ١١.
(١٠) نجيب الكيلاني، امرأة عبدالمتجلي، ص٨٢.
(١١) نجيب الكيلاني، ملكة العنب، ص ١٣٣، ١٣٤.
(١٢) المرجع السابق، ص١٣٤، ١٣٥.